Issn:2572-0023

الحملة على الأغواط نوفمبر 1852 من خلال رسالة الجنرال يوسف إلى الجنرال بيليسيي

د/مصطفى عبيد و.د/محمد يعيش
جامعة محمد بوضياف–المسيلة

تعريف بالوثيقة:

الوثيقة محل النموذج الآن هي رسالة من الجنرال يوسف[1] وردت إلى الجنرال بيليسيي[2] بتاريخ 21 نوفبر 1852 قبيل الحملة الفرنسية على الأغواط. وهي محفوظة بالعلبة رقم 8 X 417 برصيد الحكومة العامة بالجزائر (GGA) بأرشيف آكس اون بروفانس بمرسيليا بفرنسا.

1 – الجنرال يوسف واحد من أهم جنرالات فرنسا قمعا للجزائريين، تقلد في الجزائر القيادة على مناطق مختلفة منها قائد قطاع الجزائر، كما عمل بالتنسيق مع جنرالات فرنسا من أجل قمع منطقة المقاومة في منطقة القبائل وضد الأمير عبد القادر وفي اخضاع مناطق كثيرة في شرق البلاد وغربها في شمالها وجنوبها ... ثم انتقل إلى الجنوب الغربي للجزائر لا سيما ابتداء من مقاومة الأغواط هذه واستمرارا رفقة قادة فرنسيين آخرين بالقضاء على مقاودة أولاد سيدي الشيخ منذ منتصف شهر فيفري 1864. ينظر أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، ج 01 ق 02، 1860 _ 1900، بموسوعة أعمال الدكتور أبو القاسم سعد الله، دار عالم المعرفة الدولية، الجزائر، طبعة خاصة 2015، ص 186، 187 و 474.

2 –المعروف عن الجنرال بيليسيي دي رينو (Péllissier de Reynaud) أنه رجل بطش ومن بطشه نذكر مجزرة غار الفراشيش بجبال الظهرة بأولاد رياح والتي فاق عدد ضحاياها الألف شخص من جميع الفئات ومن الجنسين. كما أصبح بعد ذلك ابتداء من 24 نوفمبر 1860 حاكما عاما على الجزائر بعد إعادة تأسيس الحكومة العامة بعد تجربة وزارة الجزائر والمستعمرات التي غطت فترة 1858 – 1860. ينظر: مصطفى عبيد، **الفكر الاستعماري السانسيموني في مصر والجزائر 1833 _ 1870**، دار المعرفة الدولية، الجزائر، 2013، ص 75.

تتكون الوثيقة (الرسالة) من صفحتين من الحجم العادي (A 4)

نص الرسالة:

نسخة من رسالة الجنرال يوسف إلى الجنرال بيليسيي قبيل الحملة على الأغواط

21 نوفمبر 1852.

Copie d'une lettre de général Youcef au général Pillissier avant la prise de l'Aghoua t

(21 Novembre 1852)

المصدر: الأرشيف الوطني لما وراء البحار بآكس اون بروفونس بمرسيليا –فرنسا– الرصيد: الحكومة العامة بالجزائر (GGA) العلبة: 417 X 8 .

سيدي حضرة الجنرال:

لقد استقبلت اليوم بالقرب من الأغواط وعلى وقع الرصاص رجال الشريف فرسانا وفنتازية وعدد غفير جدا من المواطنين. لقد كسبنا معركة في غاية الأهمية حيث تجاوزت الساعة من اجل الدخول غلى واحات المدينة. وقد تمكن فرساننا من تحقيق انتصارا كبيرا حيث خلف العدو (الجزائريون) أكثر من مائة قتيل (شهيد) منهم قادة كثيرون تم التعرف عليهم.

لقد قادت كتائبي المعركة بكثير من الهدوء والدم البارد وقد كلفنا ذلك 05 قتلى و 12 جريحا، كلهم في حالة خطيرة. وقد كان النقيب دو ستال (De Stail)[1] أحد قناصي جيش إفريقيا من بين الجرحى. حيث أصابته رصالة كسرت كتفه. هذا إضافة إلى قتيلين اثنين وثلاثة جرحى من فرساننا.

وقد تمركزت المقاومة وتموقعت في مدينة الأغواط التي تحصن بها الشريف ورجاله، بينما أرسلت المواشي والنساء نحو الجنوب. وباعتبار أن أهل الأغواط من الفنتازية فقد ردوا على خطاب السلم والأمان بالرغبة في الاستشهاد من أجل ضمان الجنة.

إن الوضعية خطيرة، لقد أضحت الأغواط بؤرة للمقاومة وستغدو اكثر صلابة وشراسة. ولا أظن انه من الحكمة مهاجمة المدينة بالقوة التي هي تحت تصرفي حاليا. لست متخوفا من الهزيمة وإنما سيكلفنا ذلك الكثير من الخسائر البشرية وسيكون الانتصار، ربما، غير مكتمل. ولا تنس سيدي حضرة الجنرال باسم سعادتكم استدعاء النفر لتجنب زعاطشة جديدة. عليك بالتعجيل ولا تترك الوقت للعدو لينظم امكاناته القوية جدا. دعني أقول لك ان العدو في مرحلة الحشد التي يقوم بها السيد سي النعيمي.

كما ان مسألة التموين بالشعير لا تقلق حاليا إذ هي كافية لمدة 10 أيام قادمة.

1 – قتل في هذه المعركة ضباط كثيرون كما تشير الرسالة. وفي الوقت الذي يشير الجنرال يوسف إلى جرح خطير للقناص النقيب دو ستال فإن الباحث في تاريخ الأغواط محمود علالي يشير إلى مقتله رفقة الجنرال بوسكرين والرائد موران . محمود علالي، **الحركة الإصلاحية في الأغواط**، دار اللواء، الجزائر، 2013، ص 50، هـ 57. وللإشارة ان هذه الحصيلة من الخسائر البشرية هل حصيلة أولية جدا أي قبل بدء عمليات الاحتلال الفعلية.

إنني على بعد 1800 م من مقر مدينة رافد العيون، حيث يخيم الهدوء وعدم القتال ليلا ولا أظن أن رجال الشريف سيحاولون التقدم نحو الجبال. وانما لابد ان ندفعهم إلى مقاومة داخل المدينة. لابد أن تعلم فيالق الرائد بان (Pein)[1] أن مدينة الأغواط حاليا هي هدفنا ونحن امام فرصة متاحة. وإذا تم لنا ذلك فلن يتبقى لنا سوى خطوة واحدة للتمكن من الجنوب.

إني انتظر تجاوبكم الفعال مع هذه المستجدات، والأحسن أن تأتي شخصيا لقيادة تلك العمليات.

وتقبلوا مني سيدي حضرة الجنرال خالص تحياتي.

جنرال المفرزة قائد مقاطعة المدية يوسف.

توضيح كيفية الاستفادة من هذه الوثيقة:

إن أول ما نفتتح بها مداخلتنا هذه هي التنبيه إلى أن هذا العرض ليس تحليلا تاريخيا للوثيقة المذكورة وفق الخطوات المنهجية المعروفة، فذلك قد أصبح معروفا لدى الطلبة والباحثين عموما وليس هو موضوعا على الاطلاق الآن, وإنما غايتنا من هذا العرض هي توضيح كيفية قراءة الوثيقة التاريخية قراءة مثلى تجعل الطالب الباحث يستفيد منها استفادة علمية في ضوء الخطوات المنهجية المتعارف عليها بين الباحثين. وهو ما يتوافق مع

1- كان النقيب "بان" حينذاك هو القائد الأعلى لقوات جيش الاحتلال بمنطقة بوسعادة. ينظر: إبراهيم مياسي، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837 – 1934**، دار هومة، الجزائر، 2005، ص 113.

خصوصية الندوة التاريخية لهذا اليوم والمبرمجة حول منهجية اعداد أطروحات الدكتوراه تحت عنوان: الأرشيف واشكاليات كتابة تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر.

إن عبارة "لقد استقبلت اليوم" التي افتتح بها الجنرال يوسف رسالته تفيد أن رجال المقاومة خرجوا لملاقاة العدو، كما تفيد أيضا أن رجال المقاومة هم رجال متطوعون وليس جيشا نظاميا. ومما يؤكد ان رجال المقاومة كانوا من المتطوعين من أبناء المنطقة هي قوله في الجملة الموالية:" رجال الشريف فرسانا وفنتازية" حيث ان تعبير الفنتازية يعبر عن الفرسان الخيالة المغنين بفن الفلكلور الشعبي الخاص بالمنطقة لا سيما بالجنوب الغربي الجزائري ومنه الأغواط. وهو الفن المتمثل في بعض الحركات الجسدية المعبرة عن تناغم مع موسيقى احتفالات معينة مقرونة بألعاب فروسية مشهورة بالمنطقة من ضرب على الناي وطلقات بنادق الصيد. وبالتالي فهؤلاء الفرسان الموصوفين بالفنتازية دليل على أنهم من أبناء المنطقة وليس جيشا نظاميا مختلطا من مناطق مختلفة كما ان المعطيات التاريخية تؤكد هذا أيضا.

كما ان جملة " ... على وقع الرصاص ..." تفيد أن الجنرال يوسف كان ينظر إلى المقاومة بادئ الأمر نظرة احتقار. ومما يتبين من الرسالة أيضا، أن المقاومة ورغم أنها كانت من المتطوعين إلا انها كانت منظمة والدليل من الوثيقة قول الجنرال يوسف:"حيث خلف العدو (يقصد الجزائريين) أكثر من مائة قتيل (يقصد شهيد) منهم قادة كثيرون تم التعرف عليهم. فلفظ "قادة" يدل على أن الجيش وان كان من المتطوعين كما أسلفنا الذكر إلا انه

كان منظما تنيما محكما حيث كان القائد الأعلى للمقاومة وهو الشريف محمد بن عبد الله وله قادة مساعدون يسهرون على تنظيم الجيش وقيادته وأنهم معروفون أي لهم سابق عهد بالعمل في صفوف حركة المقاومة تحت لواء الأمير عبد القادر قبل أن تصل إلى منطقة الأغواط وأنهم من أعيان المنطقة.

قضية أخرى هامة يمكن ان نستنتجها من هذه الوثيقة وهي أن الجيش الفرنسي فقد 05 قتلى و12 جريحا بينما فقد أبناء الأغواط 100 شهيد، أي أن النسبة هي 05 بالمائة من عدد الخسائر البشرية. وهي نسبة تدفع الباحثين إلى الاستعانة بالدراسات المتخصصة في مثل هذه القضايا ونخص بالذكر هنا الدراسات العسكرية البحتة التي تهتم بدراسة نتائج المعارك الحربية. وذلك لنتمكن من الخروج بخلاصات صحيحة اكاديميا. ونشير هنا إلى ملاحظة ذات قيمة كبيرة جدا وهي ان القناص الفرنسي دو ستال كان من بين الجرحى الذين هم في وضعية حرجة جدا. ونحن نعلم القيمة الكبيرة لسقوط قتلى وجرحى من بين الضباط او القناصين.

كما ننبه هنا إلى ضرورة توظيف المنهج التاريخي الإحصائي في مثل هذه الحالات التي ترد فيها إحصائيات معينة مهما كان نوعها، توظيفا حقيقيا بطريقة علمية وليس مجرد توظيف سطحي أو توظيف خاطئ كمن يعلق تعليقات احصائية وهو لا يعلم شيئا عن الإحصاء ولا عن الموضوع الذي يتناوله بالاحصاء وهو هنا معركة عسكرية التي تدعونا كما

ذكرنا إلى الاستفادة من قراءة العسكريين لها ونعمل للوصول إلى تلك القراءة بمختلف الطرق الأكاديمية ولو ادعى بنا الأمر إلى التواصل مع رجال الميدان من العسكريين لابداء شرح وافٍ يخدم الباحث في فهمه وتعليقه عن مثل هذه المعارك.

ومما لابد أن ينتبه إليه الطالب في قراءته للوثائق وتهمنا هنا هذه الوثيقة المدروسة (رسالة الجنرال يوسف) هي مختلف الأفكار التي تحتويها الوثائق والتي تعبر سواء عن أيديولوجية المؤلف أو الجهة المحررة للوثيقة، أو أيديولوجية الطرف الذي تكتب عنه الوثيقة. وتهمنا هنا مثلا الجملة التالية:" ...وباعتبار أن اهل الأغواط من الفنتازية فقد ردوا على خطاب السلم والأمان بالرغبة في الاستشهاد من أجل ضمان الجنة" هنا لابد للطالب والباحث عموما ان يكون متمحصا في دراسته للوثائق مركزا مع كل كلمة فيها، وفيما بين سطورها. وهنا توضح الوثيقة مدى تفاجأ الجنرال يوسف بالروح الدينية التي كانت تحرك الحركة الثورية وروح المقاومة بالجزائر كلها ضد المحتل الفرنسي ألا وهي نداء الجهاد في سبيل الله تعالى. لأن ذلك طريقا إلى الجنة كما هو في المعتقد الإسلامي وهو الاعتقاد السائد طبعا بين كل الجزائريين. وبالتالي كان ذلك القوة الذهنية التي ساهمت في انتصارات الجزائريين ضد الفرنسيين رغم اختلاف القوة والعتاد، ليس في هذه المقاومة فحسب وإنما في باقي المقاومات الشعبية قبل مقاومة الأغواط وبعدها إلى غاية تحقيق الاستقلال سنة 1962.

في النصف الأخير من الرسالة يعلن الجنرال يوسف أن الجيش الفرنسي لن يجد منطقة الأغواط لقمة سائغة، كما أنه لن يجد الطريق معبدا في مشروعه من أجل الوصول إلى الصحراء الجزائرية وإلى تونس أيضا (لأنها كانت مشروع خارطة طريق آنذاك)، فقد اعتبرت الوثيقة أن المنطقة غير مستقرة لفرنسا وان الجيش الفرنسي سوف تتحطم أهدافه وآماله على جدران مدينة الأغواط، وذلك في قول الجنرال يوسف:" ... إن الوضعية خطيرة، لقد أضحت الأغواط بؤرة توتر للمقاومة وستغدو أكثر صلابة وشراسة..." كما دعا إلى ضرورة المدد إذا أرادت فرنسا العمل على تحقيق أهدافها في بسط الاحتلال نحو الصحراء وتونس ... وذلك مما جاء في الرسالة :"... ولا أظن أنه من الحكمة مواجهة المدينة بالقوة التي هي تحت تصرفي حاليا. لست متخوفا من الهزيمة وإنما سيكلفنا ذلك الكثير من الخسائر البشرية وسيكون الانتصار ،ربما، غير مكتمل، ولا تنس سيدي حضرة الجنرال باسم سعادتكم استدعاء النفر لتجنب زعاطشة جديدة، عليك بالتعجيل ولا تترك الوقت للعدو لينظم امكاناته القوية جدا". وهذا كلام واضح جدا عن مدى قوة المقاومة التي وجدها الجنرال يوسف تحمي مدينة الأغواط (كما انه اعتراف أيضا من الفرنسيين أنفسهم بقوة مقاومة الزعاطشة) كما أنه اعتراف واضح بعجز فرنسا عن تحقيق أهدافها كما أرادت وخططت. أو على الأقل عجزها عن تحقيق اهدافها بما يليق بقوة بقوة جيشها مقارنة بحركة المقاومة التي تختلف عنها في العدة والعتاد والعمل النظامي. خاصة إذا علمنا ان منطقة الأغواط

وقبلها الزعاطشة تفتقد إلى الغطاء الطبيعي فهي أرض صحراوية تسهيل من مهمة الجيش الفرنسي فيما تعيق وتحد من قوة حركة المقاومة لأنها منطقة مكشوفة.

ولابد أن نشير في ختام هذا العرض الذي يوضح لكم (طلبة الدكتوراه) كيفية الاستفادة من الوثائق ومعلوماتها وتوظيفها ... أن الجنرال يوسف لم يكن فقط متخوفا وإنما اضطر إلى الإعلان عن قضيتين في منتهى الخطورة بالنسبة لقائد في مكانة الجنرال يوسف والجنرالات الفرنسيين عموما ، وهما: دعوته الجنرال بيليسيي إلى ارسال المدد لدعم جيش الاحتلال الفرنسي القوي المجهز ... من أجل الانتصار على المقاومين العزل في الأغواط الذين لا يملكون إلا أبسط أنواع الأسلحة من سيوف وبنادق صيد ولكنهم مدعمون بروح معنوية عالية نحو الجهاد والدفاع عن الأرض يقويها الايمان بالنصر أو الشهادة وهوما اعترف به الجنرال يوسف في رسالته هذه كما مر معنا.

اما النقطة الثانية التي اعلنها الجنرال يوسف وهي القضية الأخطر وتبين مدى الرعب والذهول الذي أصابه حين دعا الجنرال بيليسيي إلى القدوم لمواصلة قيادة المعركة في الأغواط بنفسه وقد كانت هذه الدعوة صريحة حين قال :"... وإني أنتظر تجاوبكم الفعال مع هذه المستجدات، والأحسن أن تأتي شخصيا لقيادة تلك العمليات". وللعلم فإن الجنرال بيليسيي معروف بمجازره ضد الجزائريين من خلال سياسته المتبعة بالجزائر حين كان حاكما عاما عليها أو حين قيادته لمختلف العمليات الحربية. وقد كانت أخطر عملياته على

الاطلاق حين أمر بحرق قبيلة اولاد رياح بجبال الظهرة في جوان 1845. فماتوا اختناقا داخل الكهف كما ذكرنا في بداية عرض هذه الوثيقة.

وفي الختام نتمنى ان نكون قد وفقنا في عرض هذه الوثيقة ليس عرضا تاريخيا منهجيا كما هو معروف في تحليل الوثائق لأن ليس ذلك عملنا هنا، وإنما عرضا توضيحيا في كيفية استخلاص الطالب والباحث عموما معلوماته من وثيقة عثر عليها تخدم موضوع بحثه

ملحق: نص الوثيقة:

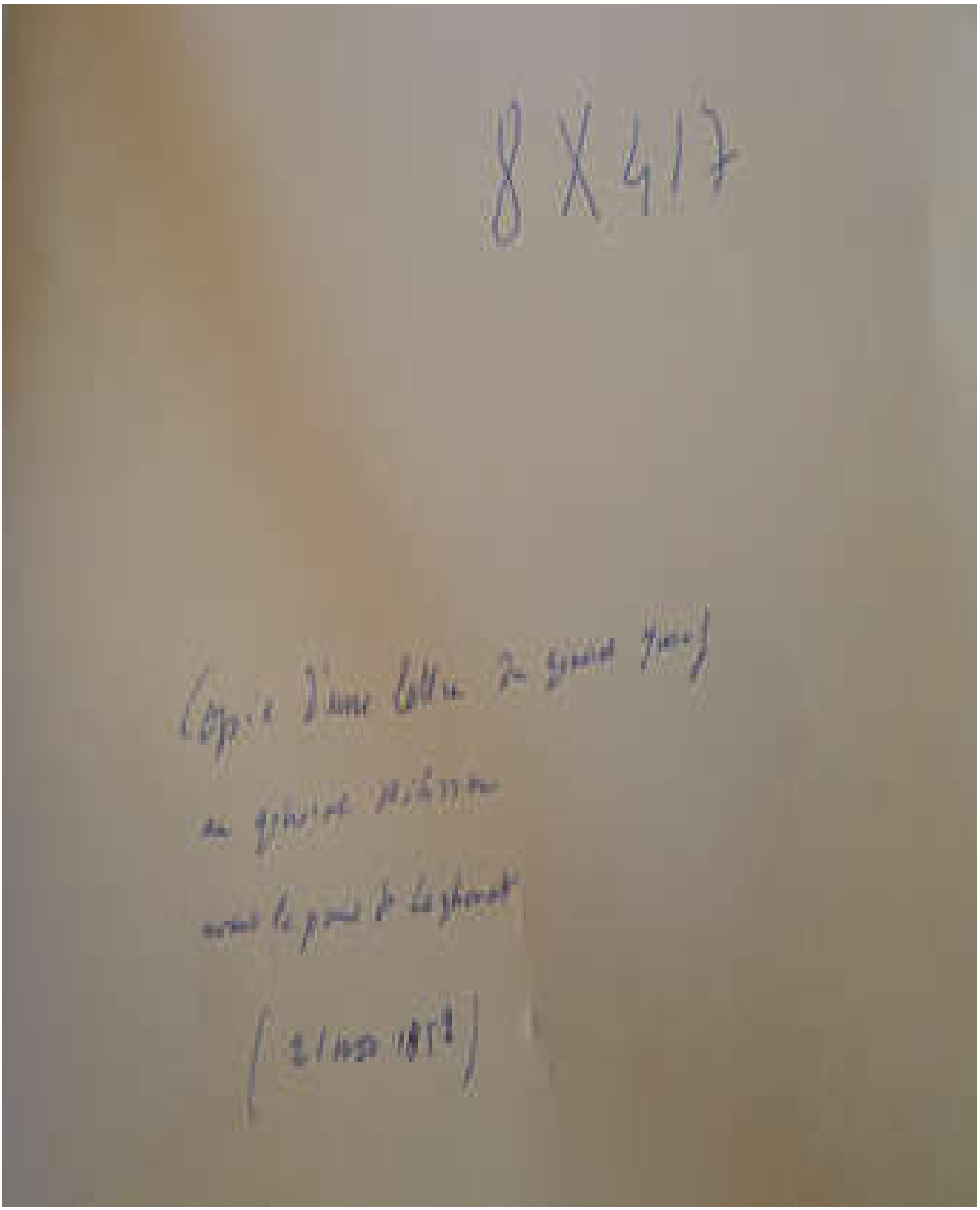

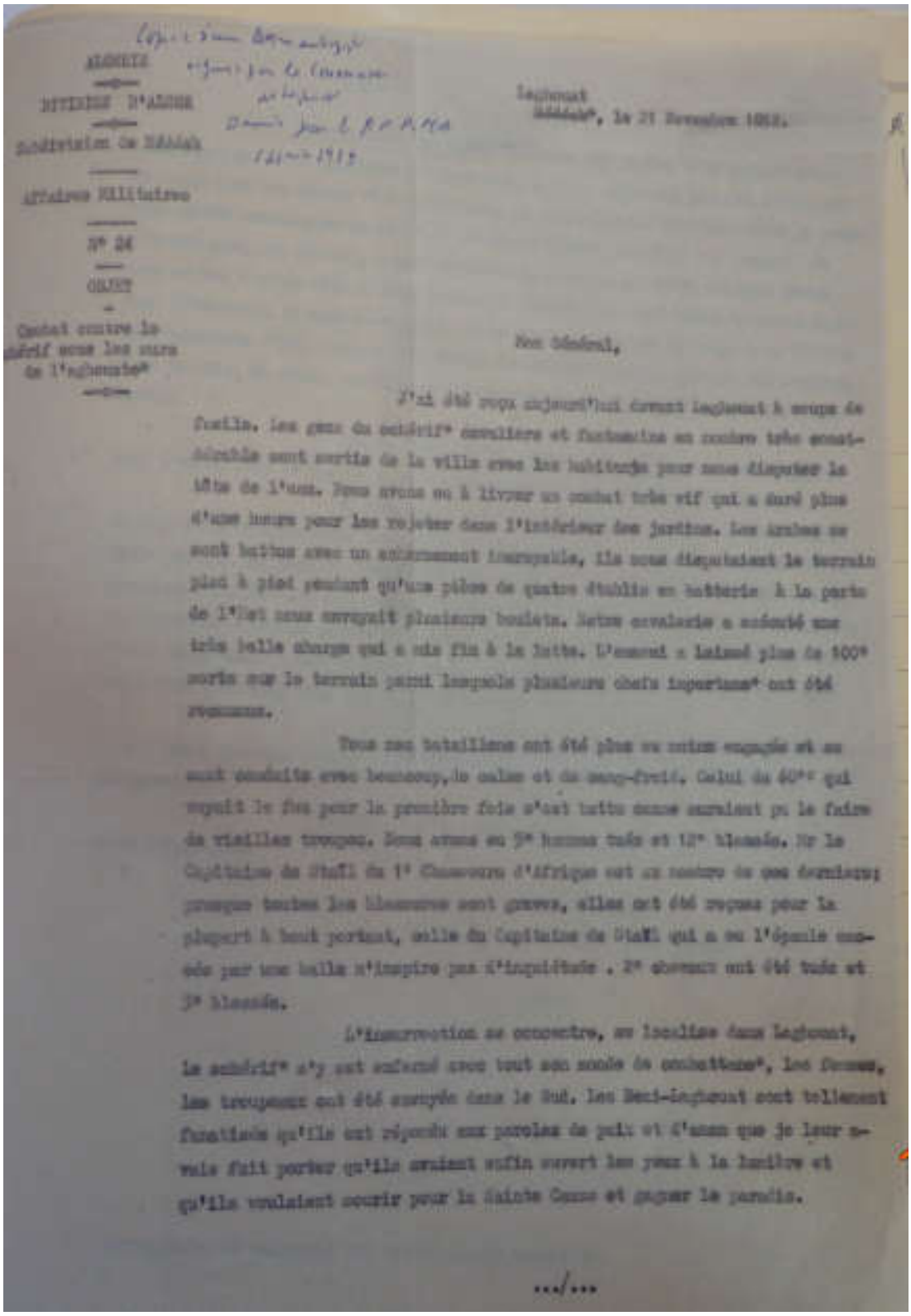

ALGERIE
DIVISION D'ALGER
Subdivision de Médéah
Affaires Militaires
N° 24
OBJET
Combat contre le Kalif avec les cara de l'aghalik

Laghouat, le 21 Novembre 1852.

Mon Général,

J'ai été assez aujourd'hui devant Laghouat à coups de fusils. Les gens du caïdrif cavaliers et fantassins en nombre très considérable sont sortis de la ville avec les habitants pour nous disputer la tête de l'eau. Nous avons eu à livrer un combat très vif qui a duré plus d'une heure pour les rejeter dans l'intérieur des jardins. Les arabes se sont battus avec un acharnement incroyable, ils nous disputaient le terrain pied à pied venant qu'une pièce de quatre établie en batterie à la porte de l'Est nous envoyait plusieurs boulets. Notre cavalerie a exécuté une très belle charge qui a mis fin à la lutte. L'ennemi a laissé plus de 300 morts sur le terrain parmi lesquels plusieurs chefs importants ont été reconnus.

Tous nos bataillons ont été plus ou moins engagés et se sont conduits avec beaucoup de calme et de sang-froid. Celui du 40e qui voyait le feu pour la première fois s'est tenu comme auraient pu le faire de vieilles troupes. Nous avons eu 3 hommes tués et 12 blessés. Sur le Capitaine de Staff du 1er Chasseurs d'Afrique est au nombre de ces derniers; quoique toutes les blessures sont graves, elles ont été reçues pour la plupart à bout portant, celle du Capitaine de Staff qui a eu l'épaule cassée par une balle n'inspire pas d'inquiétude . 2 officiers ont été tués et 3 blessés.

L'insurrection se concentre, se localise dans Laghouat, le caïdrif s'y est enfermé avec tout son monde de combattants, les femmes, les troupeaux ont été envoyés dans le Sud. les Beni-Laghouat sont tellement fanatisés qu'ils ont répondu aux paroles de paix et d'amnistie que je leur ai fait porter qu'ils avaient enfin ouvert les yeux à la lumière et qu'ils voulaient mourir pour la Sainte Cause et gagner le paradis.

.../...

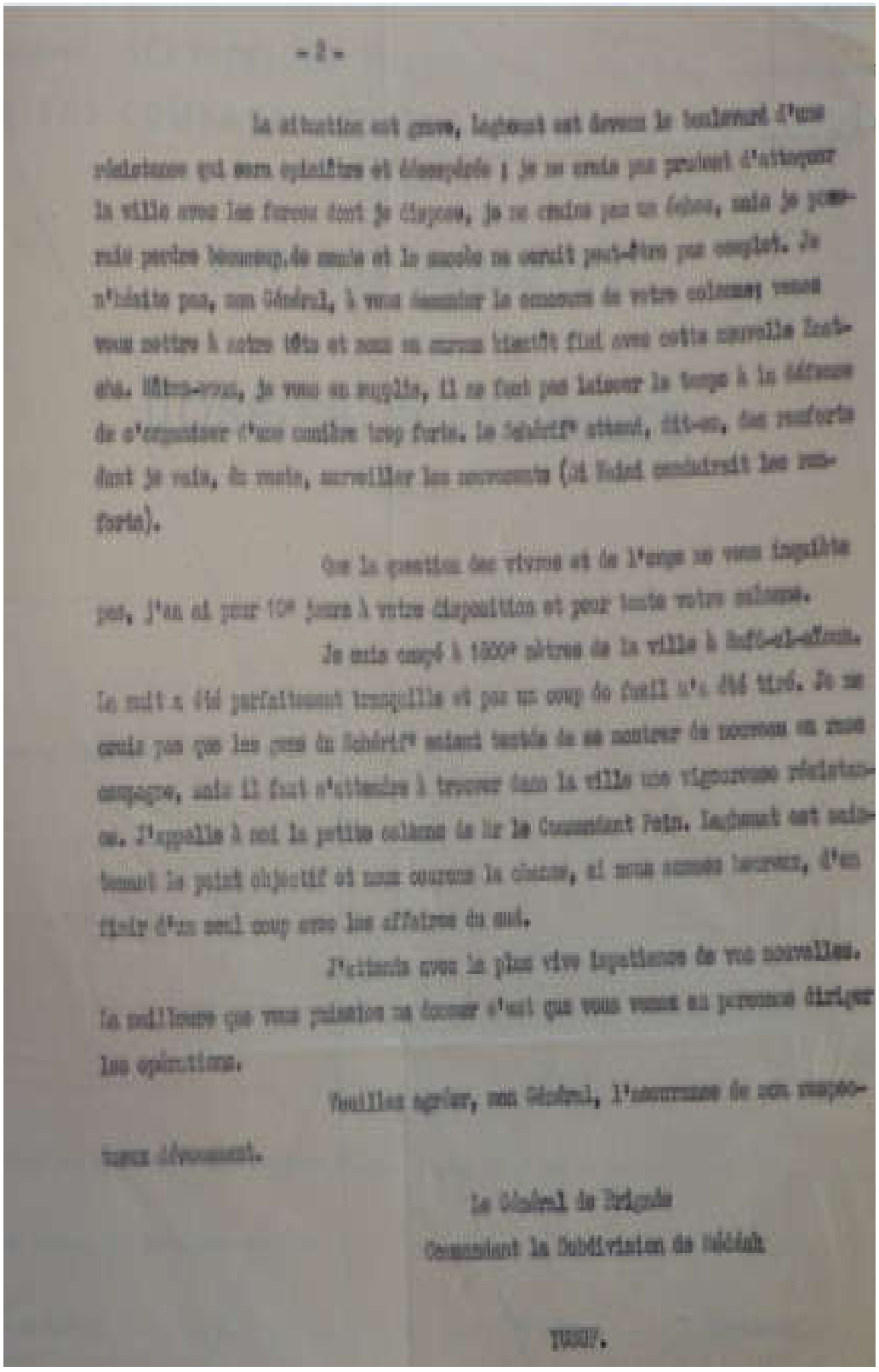

- 2 -

La situation est grave, Laghouat est devant le tourment d'une résistance qui nous épuisera et désespère ; je ne crains pas pourtant d'attaquer la ville avec les forces dont je dispose, je ne crains pas un échec, mais je pourrais perdre beaucoup de monde et la razzia ne serait peut-être pas complète. Je n'hésite pas, mon Général, à vous demander le concours de votre colonne; venez vous mettre à votre tête et nous en aurons bientôt fini avec cette pénible affaire. Hâtez-vous, je vous en supplie, il ne faut pas laisser le temps à la défense de s'organiser d'une manière trop forte. Le Khalifa attend, dit-on, des renforts dont je vais, de mon, surveiller les mouvements (si Hadj conduirait les renforts).

Que la question des vivres et de l'orge ne vous inquiète pas, j'en ai pour 10 jours à votre disposition et pour toute votre colonne.

Je suis campé à 1000 mètres de la ville à Bab-el-Gharbi. La nuit a été parfaitement tranquille et pas un coup de fusil n'a été tiré. Je ne crains pas que les gens du Khalifa soient tentés de se montrer de nouveau en rase campagne, mais il faut s'attendre à trouver dans la ville une vigoureuse résistance. J'appelle à moi la petite colonne de Mr le Commandant Pein. Laghouat est notre but le point objectif où nous courons la chance, si nous sommes heureux, d'en finir d'un seul coup avec les affaires du sud.

J'attends avec la plus vive impatience de vos nouvelles. La meilleure que vous puissiez me donner c'est que vous vous en prenniez diriger les opérations.

Veuillez agréer, mon Général, l'assurance de mon respectueux dévouement.

Le Général de Brigade
Commandant la Subdivision de Médéah

YUSUF.